العصمة حقيقتها وعللها

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

من زار الديار المقدسة (**أعني مكّة المكرمة والمدينة المنورة**) يقف على أنّ تلك الديار هي مهبط الوحي ومنزل الأنبياء الذين اختارهم الله سبحانه لتبليغ دينه وبيان شريعته.

ومن المعلوم أنّ من صفات أنبياء الله، عصمتهم من الزلات والهفوات، وطهارتهم عن الرذائل والذنوب.

ولذا فقد صرنا بصدد بيان حقيقة العصمة، التي اتفق المسلمون على كونها من صفات نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وغيره.

ثم انتقلنا إلى دراسة عصمة أهل البيت عليهم السلام الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه وطهّرهم تطهيراً.

ولذلك فسندرس هذا الموضوع في فصلين:

الأوّل: حقيقة العصمة

إنّ حقيقة العصمة عن اقتراف المعاصي ترجع إلى أحد أمور ثلاثة على وجه مانعة الخلو، وإن كانت غير مانعة الجمع.

١. العصمة الدرجة القصوى من التقوى

العصمة ترجع إلى التقوى، لكنّها ترجع إلى درجة أعلى منها، فما توصف به التقوى وتعرف به، تعرف وتوصف به العصمة.

لا شكّ أنّ التقوى حالة نفسانية تعصم الإنسان عن اقتراف كثير من القبائح والمعاصي، فإذا بلغت تلك الحالة إلى نهايتها تعصم الإنسان عن اقتراف جميع قبائح الأعمال، وذميم الفعال على وجه الإطلاق، بل تعصم الإنسان حتى عن التفكير في المعصية، فالمعصوم ليس خصوص مَن لا يرتكب المعاصي ويقترفها، بل هو من لا يحوم حولها بفكره.

إنّ العصمة ملكة نفسانية راسخة في النفس لها آثار خاصّة كسائر الملكات النفسانية من الشجاعة والعفّة والسخاء، فإذا كان الإنسان شجاعاً وجسوراً، وسخياً وباذلاً، وعفيفاً ونزيهاً، يطلب في حياته معالي الأُمور، ويتجنّب عن سفاسفها، فيطرد ما يخالفه من الآثار، كالخوف والجبن والبخل والإمساك، والقبح والسوء، ولا يُرى في حياته أثرٌ منها.

ومثله العصمة، فإذا بلغ الإنسان درجة قصوى من التقوى، وصارت تلك الحالة راسخة في نفسه، يصل الإنسان إلى حدّ لا يُرى في حياته أثرٌ من العصيان والطغيان، والتمرّد والتجرّي، وتصير ساحته نقية عن المعصية.

وأمّا أنّ الإنسان كيف يصل إلى هذا المقام؟ وما هو العامل الذي يمكّنه من هذه الحالة؟ فهو بحث آخر لا يسع المقال لبيانه.

فإذا كانت العصمة من سنخ التقوى والدرجة العليا منها، يسهل لك تقسيمها إلى العصمة المطلقة والعصمة النسبية.

فإنّ العصمة المطلقة وإن كانت تختصّ بطبقة خاصة من الناس، لكن العصمة النسبية تعمّ كثيراً من الناس من غير فرق بين أولياء الله وغيرهم، لأنّ الإنسان الشريف الذي لا يقل وجوده في أوساطنا وإن كان يقترف بعض المعاصي، لكنّه يجتنب عن بعضها اجتناباً تامّاً بحيث يتجنّب حتى التفكير بها فضلاً عن الإتيان بها.

مثلاً الإنسان الشريف لا يتجوّل عارياً في الشوارع والطرقات مهما بلغ تحريض الآخرين له على ذلك الفعل، كما أنّ كثيراً من الناس لا يقومون بقتل الأبرياء ولا بقتل أنفسهم وإن عُرضت عليهم مكافآت مادية كبيرة، فإنّ الحوافز الداعية إلى هذه الأفعال المنكرة غير موجودة في نفوسهم، أو أنّها محكومة ومردودة بالتقوى التي تحلّوا بها، ولأجل ذلك صاروا بمعزل عن تلك الأفعال القبيحة حتى أنّهم لا يفكّرون فيها ولا يحدّثون بها أنفسهم أبداً.

والعصمة النسبية التي تعرفت عليها تُقرِّب حقيقة العصمة المطلقة في أذهاننا، فلو بلغت تلك الحالة النفسانية الرادعة في الإنسان مبلغاً كبيراً ومرحلة شديدة بحيث تمنعه من اقتراف جميع القبائح، يصير معصوماً مطلقاً، كما أنّ الإنسان في القسم الأوّل صار معصوماً نسبياً.

وعلى الجملة: إذا كانت حوافز الطغيان والعصيان والبواعث على المخالفة محكومة عند الإنسان، منفورة لديه لأجل الحالة الراسخة، يصير الإنسان معصوماً تامّاً منزّهاً عن كلّ عيب وشين.

***

٢. العصمة: نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي

قد تعرّفت على النظريّة الأُولى في حقيقة العصمة، وأنّها عبارة عن الدرجة العليا من التقوى، غير أنّ هناك نظرية أخرى في حقيقتها، لا تنافي النظرية الأُولى، بل ربّما تعدّ من علل تحقّق الدرجة العليا من التقوى التي عرّفنا العصمة بها، ولتكوّنها في النفس، وحقيقة هذه النظرية عبارة عن «وجود العلم القطعي اليقيني بعواقب المعاصي والآثام» لا يُغلب ولا يدخله شكّ، ولا يعتريه ريب، وهو أن يبلغ علم الإنسان درجة يلمس في هذه النشأة لوازم الأعمال وآثارها في النشأة الأُخرى وتبعاتها فيها، ويصير على حد يدرك بل يرى درجات أهل الجنة ودركات أهل النار، وهذا العلم القطعي هو الذي يزيل الحجب بين الإنسان وتوابع الأعمال، ويصير الإنسان مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿**كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾؛[1] وصاحب هذا العلم هو الذي يصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: «فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون».[2]

فإذا بلغ العلم إلى هذه الدرجة من الكشف يصد الإنسان عن الاقتراب من المعاصي واقتراف المآثم، بل لا يجول حولها فكره.

ولتوضيح تأثير هذا العلم في صيرورة الإنسان معصوماً من اقتراف الذنب

١. التكاثر: ٥ ـ ٦.

٢. نهج البلاغة: ٢: الخطبة ١٨٨، ص ١٨٧، طبعة عبده.

نأتي بمثال:

إنّ الإنسان إذا وقف على أنّ في الأسلاك الكهربائية طاقة من شأنها قتل الإنسان إذا مسّها من دون حاجز أو عائق بحيث يكون المسّ والموت مقترنين، أحجمت نفسه عن مسّ تلك الأسلاك والاقتراب منها دون عائق.

أو أنَّ الطبيب العارف بعواقب الأمراض وآثار الجراثيم، إذا وقف على ماء اغتسل فيه مصاب بالجذام أو البرص أو السل، لم يقدم على شربه والاغتسال منه ومباشرته مهما اشتدت حاجته إلى ذلك؛ لعلمه بما يَجُرُّ عليه الشرب والاغتسال بذلك الماء الموبوء، فإذا وقف الإنسان الكامل على ما وراء هذه النشأة من نتائج الأعمال وعواقب الأفعال ورأى بالعيون البرزخية تبدّل الكنوز المكتنزة من الذهب والفضة إلى النار المحماة التي تُكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم، امتنع عن حبس الأموال، والإحجام عن إنفاقها في سبيل الله.

قال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذاب أَلِيم * يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾.[1]

إنّ ظاهر قوله سبحانه: ﴿**هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ**﴾ هو أنّ النار التي تُكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم، ليست إلاّ نفس الذهب والفضة، لكن بوجودهما الأُخرويّين، وأنّ للذهب والفضة وجودين أو ظهورين في النشأتين، فهذه الأجسام الفلزية، تتجلّى في النشأة الدنيوية في صورة الذهب والفضة، وفي النشأة الأُخروية في صورة النيران المحماة.

فالإنسان العادي اللامس لهذه الفلزات المكنوزة، وإن كان لا يحسّ فيها الحرارة، ولا يرى فيها النار ولا لهيبها، إلاّ أنّ ذلك لأجل أنّه يفقد حين المس،

---

١ . التوبة : ٣٤ ٣٥.

الحسَّ المناسب لدرك نيران النشأة الآخرة وحرارتها، فلو فرض إنسان كامل يمتلك هذا الحسّ إلى جانب بقية حواسّه العادية المتعارفة ويدرك بنحو خاص الوجه الآخر لهذه الفلزات، وهو نيرانها وحرارتها، يجتنبها، كاجتنابه النيران الدنيوية، ولا يقدم على كنزها وتكديسها.

وهذا البيان يفيد أنّ للعلم مرحلة قويّة راسخة تصد الإنسان عن الوقوع في المعاصي والآثام، ولا يكون مغلوباً للشهوات والغرائز.

قال جمال الدين مقداد بن عبدالله الأسدي السيوري الحلي في كتابه القيّم «اللوامع الإلهية»: «ولبعضهم كلام حسن جامع هنا قالوا: العصمة ملكة نفسانية يمنع المتّصف بها من الفجور مع قدرته عليه، وتتوقّف هذه الملكة على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، لأنّ العفّة متى حصلت في جوهر النفس، وانضاف إليها العلم التام بما في المعصية من الشقاء، والطاعة من السعادة، صار ذلك العلم موجباً لرسوخها في النفس فتصير ملكة».[١]

يقول العلاّمة الطباطبائي في هذا الصدد: إنّ القوة المسمّاة بقوة العصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتة، ولو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور والإدراك، لتسرّب إليها التخلّف، ولتخبّط الإنسان على أثره أحياناً، فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم والإدراكات المتعارفة، التي تقبل الاكتساب والتعلّم، وقد أشار الله في خطابه الذي خصّ به نبيه بقوله: ﴿**وَأَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**﴾.[٢] وهو خطاب خاص لا نفقهه حقيقة الفقه، إذ لا تذوق لنا في هذا المجال.[٣]

---

١ . اللوامع الإلهية: ١٧٠.

٢ . النساء: ١١٣.

٣ . الميزان: ٥ :٨١.

وهو قدّس سره يشير إلى كيفية خاصة من العلم والشعور الذي أوضحناه بما ورد حول الكنز وآثاره.

* * *

٣. الاستشعار بعظمة الربّ وكماله وجماله

إنّ هاهنا نظرية ثالثة في تبيين حقيقة العصمة، يرجع لبّها إلى أنّ استشعار العبد بعظمة الخالق وحبه وتفانيه في معرفته وعشقه له، يصدّه عن سلوك ما يخالف رضاه سبحانه.

وتلك النظرية مثل النظرية الثانية، لا تخالف النظرية الأُولى التي فسّرناها من أنّ العصمة هي الدرجة العليا من التقوى، بل يكون الاستشعار والتفاني دون الحق، والعشق لجماله وكماله، أحد العوامل لحصول تلك المرتبة من التقوى، وهذا النحو من الاستشعار لا يحصل إلاّ للكاملين في المعرفة الإلهية، البالغين أعلى قممها.

إذا عرف الإنسان خالقه كمال المعرفة الميسورة، وتعرّف على معدن الكمال المطلق وجماله وجلاله، وجد في نفسه انجذاباً نحو الحق، وتعلّقاً خاصّاً به بحيث لا يستبدل برضاه شيئاً، فهذا الكمال المطلق هو الذي إذا تعرّف عليه الإنسان العارف، يؤجّج في نفسه نيران الشوق والمحبة، ويدفعه إلى أن لا يبتغي سواه، ولا يطلب سوى إطاعة أمره وامتثال نهيه، ويصبح كلّ ما يخالف أمره ورضاه منفوراً لديه، مقبوحاً في نظره، أشد القبح. وعندئذ يصبح الإنسان مصوناً عن المخالفة، بعيداً عن المعصية بحيث لا يؤثر على رضاه شيئاً.

وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله:

«ما عَبَدتُكَ خَوفاً مِن نارِكَ ولا طَمعاً في جنَّتِكَ، إنّما وَجَدتُكَ أهلاً للعِبادَة».[١]

هذه النظريات الثلاث أو النظرية الواحدة المختلفة في البيان والتقرير تعرب عن أنّ العصمة قوة في النفس تعصم الإنسان عن الوقوع في مخالفة الرب سبحانه وتعالى، وليست العصمة أمراً خارجاً عن ذات الإنسان الكامل وهويته الخارجية.

نعم هذه التحاليل الثلاثة لحقيقة العصمة، كلّها راجعة إلى العصمة عن المعصية والمصونية عن التمرّد كما هو واضح لمن تأمّل فيها، وأمّا العصمة في مقام تلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه إلى الناس، أو العصمة عن الخطأ في الحياة والأُمور الفردية أو الاجتماعية، فلا بد أن توجه بوجوه غير هذه الثلاثة.

العصمة عن الخطأ

أمّا العصمة عن الخطإ في تحمّل الوحي وحفظه ونقله إلى الأُمّة في حقّ النبي (صلى الله عليه وآله) أو عصمة أهل البيت عليهم السلام في الإفتاء ونقل ما ورثوه من النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) فهي رهن أمر آخر.

أمّا النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) فإنّه سبحانه يسدّده بالملائكة كما يقول سبحانه: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾.[٢]

فإنّ قوله: ﴿**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ**﴾ بمعنى يجعل له رصداً. فهؤلاء الملائكة هم الذين يسدّدون الأنبياء عن الخطإ في القول والفعل. وأمّا أهل البيت: فبما أنّ عصمتهم عن المعصية والخطإ ثابتة بالدلائل الآتية، فلا محيص من القول من

١. عوالي اللآلي ٢: ١١ برقم ١٨؛ بحار الأنوار ٤١: ١٤.
٢. الجن: ٢٦ـ٢٨.

أنّ لهم مسدّداً في الإفتاء ونقل الأحاديث وتفسير القرآن الكريم.

أمّا ما هو المسدّد، فالبحث عنه موكول إلى مقام آخر.

* * *

الثاني: العصمة لا تلازم النبوّة

إنّ بعض مَن يتحاشى من وصف غير الأنبياء بالعصمة يتصوّرون وجود الملازمة بين العصمة والنبوة، والحال أنّ بينهما من النسب عموماً وخصوصاً من وجه مطلق، فكلّ نبيّ معصوم وليس كلّ معصوم بنبيّ.

فهذه هي مريم العذراء الّتي هي الأُسوة والقدوة للنساء كما عليه قوله سبحانه:

﴿وَ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتُبِهِ وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.[١]

وبما أنّه سبحانه جعلها قدوةً ومثالاً يحتذى به، فلابد أن تكون معصومة عن المعاصي والأخطاء، وإلاّ لايصح أن تكون أسوة قولاً وفعلاً على الإطلاق. وبالجملة: وجود الملازمة بين الأُسوة المطلقة وبين العصمة.

ويؤيّد عصمتها أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.[٢] فإنّ إطلاق قوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ يدلّ على طهارتها من الرذائل والذنوب والخطإ والزلل.

كما أنّ منزلة الزهراء عليها السلام في حديث أبيها تعرب عن عصمتها قولاً وفعلاً، فقد روى البخاري عن مسعود بن مخرمة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله)

---

١ . التحريم: ١٢.

٢ . آل عمران: ٤٢ .

قال: «فاطمة بضعة منّي، فمن أغضبها فقد أغضبني».[١]

وروى الحاكم بإسناده عن علي عليه السلام أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لفاطمة: «إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك».[٢]

أقول: أيّ مكانة شامخة للزهراء عليها السلام حتّى صار غضبها ورضاها ملاكاً لغضبه سبحانه ورضاه، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عصمتها، فهو سبحانه بما أنّه عادل وحكيم لايغضب إلاّ على الكافر والعاصي، ولايرضى إلاّ عن المؤمن والمطيع، فلو دلّت الرواية الصحيحة على أنَّ فاطمة غضبت على أحد، فهو إمّا كافر أو فاسق.

***

إذا تمّ هذا التمهيد ضمن أمرين، فلنعرّج إلى بيان أدلّة عصمة أهل البيت عليهم السلام كتاباً وسنّةً، ونقتصر من الكتاب العزيز بآيتين، ومن السنّة بحديثي الثقلين والسفينة.

الكتاب العزيز

الآية الأُولى:

قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾.[٣] فيقع الكلام في مقامين:

١. ما هو المراد من أهل البيت عليهم السلام؟

---

١ . صحيح البخاري: ٩١٠، برقم ٣٧١٤ ، فضائل الصحابة ؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٧ : ٨٤ .

٢ . المستدرك على الصحيحين ٣ :١٥٤، وقد صحّحه الحاكم.

٣ . الأحزاب: ٣٣ .

٢. دلالة الآية على تنزيههم عن الذنوب.

أمّا المقام الأوّل: فلاشكّ أنّ عبارة (أهل البيت) تعمّ النساء والأزواج لغةً وكتاباً، ويكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿**قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ رَحْمَةُ اللّٰهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾.[١] فقد عُدّت امرأة إبراهيم عليه السلام من أهل البيت، والخطاب في الآية أعني قوله: ﴿**أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ**﴾ ناظر إليها.

ومع الاعتراف بذلك، لكن المراد به في الآية عبارة عمّن عيّنهم الرسول (صلى الله عليه وآله) مرّة بعد أخرى، فخصّهم بعلي وفاطمة وابنيهما عليهم السلام.

فتارة: يصرح (صلى الله عليه وآله) بأسمائهم، كما روى الطبري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وعلي رضي الله عنه وحسن رضي الله عنه وحسين رضي الله عنه وفاطمة رضي الله عنها: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾.[٢]

وأخرى: أدخلهم تحت الكساء، كما أخرج مسلم في صحيحه قال: قالت عائشة: خرج النبي ذات غداة، وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾.[٣]

وثالثة: تلا الآيات على بابهم، كما أخرج الطبري عن أنس أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) كان يمرّ ببيت فاطمة ستة أشهر كلّما خرج إلى الصلاة فيقول: الصلاة أهل البيت (عليهم السلام) ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ**

---

١ . هود: ٧٣ .

٢ . تفسير الطبري ٢٢ : ٩ برقم ٢١٧٢٧، دار الفكر ١٤١٥ هـ .

٣ . صحيح مسلم ٧ : ١٣٠، باب فضائل أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله).

أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.[١]

وقد بلغ عدد الروايات الواردة في تخصيص أهل البيت عليهم السلام بالخمسة ما يناهز ٣٥ رواية، أخرجها الطبري في تفسيره، والسيوطي في الدر المنثور وغيرهما،[٢] وتصل أسانيد الروايات إلى ثمانية من صحابة النبي (صلى الله عليه وآله) وهم:

١. أبوسعيد الخدري.
٢. أنس بن مالك.
٣. ابن عباس.
٤. أبوهريرة السدوسي.
٥. سعد بن أبي وقاص.
٦. واثلة بن الأسقع.
٧. أبو الحمراء، أعني: هلال بن الحارث.

١. تفسير الطبري ٢٢ : ٩ برقم ٢١٧٢٩ .
٢. تاريخ الطبري ٢٢ : ٩ ـ ١٣ ؛ الدر المنثور ٥ : ١٩٨ ١٩٩؛ تفسير الرازي ٨ : ٨٥ .

٨ . أُمهات المؤمنين: عائشة وأُمّ سلمة.

نعم هناك سؤال، وهو أنّه لو كان المراد بأهل البيت عليهم السلام هم هؤلاء الخمسة، فلماذا وردت الإشارة إليهم في أثناء حديث القرآن عن نساء النبي (صلى الله عليه وآله)؟

الجواب أوّلاً: أنّ عادة الفصحاء في كلامهم أنّهم ينتقلون من خطاب إلى غيره ثم يعودون إليه، والقرآن مليء بذلك الأُسلوب، وكذلك كلام العرب وأشعارهم.

قال الشيخ محمد عبده: إنّ من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن، ثم يعود إلى مباحث المقصد الواحد المرّة بعد المرّة.[١]

ولأجل إيقاف القارئ على صحّة ماقاله، نأتي بشاهد على ذلك، فنقول: قال سبحانه ناقلاً عن «العزيز» مخاطباً زوجته: ﴿**إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾.[٢] فنرى أنّ العزيز يخاطب أوّلاً امرأته بقوله: ﴿**إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ**﴾ وقبل أن يفرغ من كلامه معها، يخاطب يوسف بقوله: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ ثم يرجع إلى الموضوع الأوّل ويخاطب زوجته بقوله: ﴿**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ**﴾. فقوله: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾، جملة معترضة وقعت بين الخطابين، والمسوّغ لوقوعها بينهما كون المخاطب الثاني أحد المتخاصمين، وكانت له صلة بحديث المرأة الّتي رفعت الشكوى إلى العزيز.

وثانياً: أنّ الضمائر في الآية كلّها مذكّرة أعني «عنكم» و «يطهركم»، مع أنّ الضمائر في الآيات المتقدّمة والمتأخّرة كلّها جاءت على وجه التأنيث، وربما

---

١ . تفسير المنار٢ :٤٥١.

٢ . يوسف: ٢٨ـ ٢٩ .

يقرب عددها من عشرين ضميراً كلّها مؤنثة، وهذا دليل على أنّ الآية ناظرة إلى غير النساء.

وإليك صور الضمائر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِي قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ... يَا نِسَاءَ النَّبِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ... وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ...يَا نِسَاءَ النَّبِي لَسْتُنَّ... إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ.. وَقُلْنَ... وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَتَبَرَّجْنَ... وَأَقِمْنَ الصَّلَوةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللّٰهَ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.[1]

هذه هي الضمائر المتقدّمة على الآية، وأمّا الضمائر المتأخّرة عنها فهي: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ﴾.[2]

والذي يؤكّد خروج النساء عن الآية، هو أنّ الله سبحانه أفرد لفظ البيت في الآية وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾؛ ولكنّه عبّر عن بيوت أزواجه بصيغة الجمع وقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ وعلى هذا فهناك «بيت» معروف مشخّص أُضيف إليه لفظ «أهل» فأصبحت العبارة «أهل البيت»، وفي الوقت نفسه هناك بيوت لنسائه وأزواجه، فالمتواجد في البيت الأوّل، غيرالمتواجد في البيوت، فإذا كانت البيوت خاصّة لنسائه (صلى الله عليه وآله) فيكون البيت خاصّاً لأهل الكساء، إذ الأمر يدور بين الطائفتين ليس غير.

فحول النبي (صلى الله عليه وآله) أُسرتان:

أسرة لها المكانة والفضل لاتّصالها بالنبي (صلى الله عليه وآله) لا لذواتهن،

١ . الأحزاب: ٢٨ ـ ٣٣.
٢ . الأحزاب: ٣٤.

ولذا استهلّ سبحانه الآيات بقوله: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة**...﴾ و﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِي لَسْتُنَّ كَأَحَد مِنَ النِّسَاءِ**﴾، كلّ ذلك يعرب عن أنّ كرامتهنّ لأجل اتّصالهنّ بالنبي (صلى الله عليه وآله).

وأسرة لها الفضل والكرامة لاستحقاقهن بها وقدسية أنفسهن، فقد أعطى سبحانه كلّ أسرة حقّها، فقد أدّب الأُسرة الأُولى ونهاهنّ عن أمور، تمسّ بكرامة زوجهنّ. ثم أخذ بوصف الأُسرة الثانية وتكريمها مشعراً بطهارتها عن كلّ رجس ودنس.[١]

فبذلك يعلم وجه إدغام قوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ**...﴾ في ثنايا الآيات النازلة في حقّ نسائه، فكأنّه سبحانه يريد إعطاء كلّ أسرة حول النبي (صلى الله عليه وآله) حقّها.

وممّن أصحر بالحقيقة الإمام الشوكاني، قال: وقالت الزيدية والإمامية: إنّ إجماع العترة حجّة، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ وأجيب بأنّ سياق الآية أنّه في نسائه، ثم أضاف وقال: ويجاب عن هذا الجواب بأنّه قد ورد الدليل الصحيح أنّها نزلت في علي وفاطمة والحسنين، وقد أوضحنا الكلام في هذا في تفسيرنا الذي سمّيناه «فتح القدير» فليرجع إليه.[٢]

نعم ربما ذهب بعضهم إلى نزول الآية في نساء النبي (صلى الله عليه وآله)، لكنّهم جماعة لا يعتد بقولهم منهم:

١. عكرمة، ومن المعلوم أنّ عكرمة من الإباضية، فهو رجل منحرف عن

---

١. أنظر دلائل الصدق، للشيخ محمد حسين المظفر ٢: ٧٢.

٢. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأُصول: ١٢٦.

جادة الحق، ولم يكن ليتحرّز الكذب على ابن عباس.[١]

٢. عروة بن الزبير، ويكفي في عدم حجية قوله، عداؤه لعلي وانحرافه عنه.[٢]

ومنهم مقاتل بن سليمان، وهو من المشبّهة، وعن الإمام أبي حنيفة قال: أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبّه. وفي البخاري: لا شيء البتة. قلت: أجمعوا على تركه.[٣]

ولمّا كان هذا الرأي أعني: اختصاص الآية بنساء النبي (صلى الله عليه وآله) رأياً قاسياً مخالفاً لرأي جمهور المفسّرين، اتّخذ الآلوسي رأياً وسطاً؛ ليكون جامعاً بين القولين وقال: «والذي يظهر لي: إنّ المراد من أهل البيت من لهم مزيد علاقة به (صلى الله عليه وآله)، ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام، بحيث لايقبح عرفاً اجتماعهم وسكناهم معه (صلى الله عليه وآله) في بيت واحد، ويدخل في ذلك أزواجه والأربعة أهل الكساء، وعلي كرم الله وجهه، مع ماله من القرابة من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقد نشأ في حجره عليه الصلاة والسلام، فلم يفارقه وعامله كولده صغيراً وصاهره وآخاه كبيراً.[٤]

يلاحظ عليه:

أوّلاً: أنّ ما ذكره هو خلاف ما فهمه زيد بن أرقم ذلك الصحابي من الآية لمّا

---

١ . لاحظ : ترجمته في ميزان الاعتدال ٣ :٩٣ ـ ٩٧ ؛ سير أعلام النبلاء ٥ : ١٨ـ ٢٩.

٢ . لاحظ : سير أعلام النبلاء ٤ :٤٢١ ـ ٤٣٤.

٣ . سير أعلام النبلاء ٧ :٢٢٠.

٤ . روح المعاني للسيد محمود الآلوسي البغدادي (المتوفّى ١٢٧٠ هـ) ٢٢ :١٩، في تفسير آية التطهير. ط دار احياء التراث العربي، بيروت .

قيل له : «من أهل بيته نساؤه»؟! قال: «لا وأيم الله، إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها.. إلى آخر ما ذكره.[١]

وثانياً: أنّ تعميم أهل البيت في الآية إلى النساء خلاف ما نصّ عليه الرسول (صلى الله عليه وآله)، روى الحاكم: عن عطاء بن يسار عن أمّ سلمة رضي الله عنها، أنّها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾، فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي.

قالت أمّ سلمة: يا رسول الله: ما أنا من أهل البيت؟

قال: إنّك على خير، وهؤلاء أهل بيتي. اللّهم أهلي أحق.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.[٢]

وقال الترمذي بعد نقل الحديث: هذاحديث حسن صحيح، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب.[٣]

وثالثاً: أنّ ما ذكره يخالف تخصيص النبي الآية بأصحاب الكساء بصورة مختلفة حتّى جعلهم تحت الكساء وجلّلهم به، حتّى يكون عمله جامعاً ومانعاً للغير. ومع ذلك كيف يصحّ للسيد الآلوسي تعميم الآية؟! فلاحظ.

وبالجملة: الأحاديث المتضافرة بل المتواترة إجمالاً على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله)، أخبر عن اختصاص الآية بأهل الكساء، وحقّق ما يريده بعناوين متنوّعة، كثيرة لايسعنا نقلها في هذا المقال المطلوب فيه الإيجاز والاختصار.

هذا إجمال ما يمكن أن يقال في نزول الآية في حق الخمسة سلام الله عليهم،

---

١ . صحيح مسلم٧ :١٢٣، باب فضائل علي (عليه السلام).

٢ . المستدرك على الصحيحين ٣ :١٤٧.

٣ . سنن الترمذي ٥ :٣٦١ برقم ٣٩٦٣، باب ما جاء في فضل فاطمة (عليها السلام).

ومن أراد التفصيل، فليرجع إلى كتب أصحابنا فلهم بحوث تفصيلية حول الآية.

***

وأمّا المقام الثاني: أي دلالة الآية على عصمة أهل البيت عليهم السلام، فهي مبتنية على ثبوت أمرين:

١. أنّ الرجس أمرٌ يعمّ المعاصي صغيرها وكبيرها.

٢. أنّ الإرادة تكوينية لا تشريعية.

أمّا الأمر الأوّل: فقد استعملت هذه اللفظة في الذكر الحكيم ثمان مرّات ووصف بها الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، والكافر غير المؤمن بالله، والميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والأوثان، وقول الزور.

فالجامع بينها القذارة الّتي تتنفّر منها النفوس؛ سواء أكانت مادّية كما في مورد اللحوم، أم معنوية كما هوالحال في الكافر وعابد الوثن ووثنه، فالجامع بينهما هي الأعمال القبيحة عرفاً أو شرعاً.

قال العلاّمة الطباطبائي: الرجس بالكسر والسكون صفة من الرجاسة وهي القذارة، والقذارة هيئة في النفس توجب التجنّب والتنفّر منها، وهي تكون تارة بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير، قال تعالى: ﴿**أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ**﴾[١] وبحسب باطنه أخرى، وهي الرجاسة والقذارة المعنوية كالشرك والكفر وأثر العمل السيّئ، قال تعالى: ﴿**وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ**﴾،[٢] وقال: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا**

---

١. الأنعام: ١٤٥.

٢. التوبة: ١٢٥.

﴿يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.[١]

وأيّاً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري يحدث من تعلّق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيّئ، وإذهاب الرجس عبارة عن إزالة كلّ هيئة خبيثة في النفس تضاد حق الاعتقاد والعمل، وعند ذلك يكون إذهاب الرجس معادلاً للعصمة الإلهية، الّتي هي صورة علمية نفسانية، تحفظ الإنسان من رجس باطني الاعتقاد وسيّئ العمل،[٢] هذا كلّه حول الأمر الأوّل.

وأمّا الأمر الثاني: أعني كون الإرادة تكوينية لاتشريعية.

إنّ انقسام إرادته سبحانه إلى تكوينية وتشريعية أمرٌ واضح، أمّا الأُولى فهي ما تتعلّق بإيجاد الشيء، ومنها قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[٣]

وأمّا الثانية فهي ما إذا تعلقت إرادته بتشريع حكم من الأحكام وبعث الناس إلى العمل به.

فالإرادة التكوينية لا تنفك عن المراد، بخلاف التشريعية فإنّها لغاية بعث الناس إلى الفعل أو الترك مخيّرين بين الطاعة والعصيان.

فنقول: لاشك أنّ الإرادة المتعلّقة بإذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام بالخصوص تكوينية، إذ لو كانت تشريعية لما اختصّت بطائفة دون طائفة؛ لأنّ الهدف الأسمى من بعث الأنبياء هو تطهير عامّة الناس عن الذنوب بقوله سبحانه:

﴿وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[٤]

١ . الأنعام: ١٢٥ .
٢ . الميزان في تفسير القرآن ١٦ :٣٣٠.
٣ . يس: ٨٢ .
٤ . المائدة: ٦ .

وإن شئت قلت: تخصيص تعلّق الإرادة بجمع خاص، يمنع من تفسير الإرادة بالإرادة التشريعية الّتي عمّت الأُمّة جميعاً.

وبعبارة ثالثة: لو كانت الإرادة تشريعية، لما احتاج إلى إبراز العناية بصور مختلفة الواردة في الآية، فإليك بيان تلك العناية:

أ. ابتدأ سبحانه كلامه بلفظ الحصر، (إنّما) ولا معنى له إذا كانت الإرادة تشريعية ؛ لأنّها غير محصورة بأناس مخصوصين.

ب. عيّن تعالى متعلّق إرادته بصورة الاختصاص، فقال: ﴿أهل البيت﴾ أي أخصّكم أهل البيت.

ج. قد بيّن متعلّق إرادته بلفظة «عنكم» وقال : ﴿**لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾.

د. قد أكدّه أيضاً بالإتيان بمصدره بعد الفعل وقال: ﴿**وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾، ليكون أوفى في التأكيد.

هـ . أنّه سبحانه أتى بالمصدر نكرة، ليدلّ على الإكبار والإعجاب، أي تطهيراً عظيماً معجباً.

و. أنّ الآية في مقام المدح والثناء، فلو كانت الإرادة إرادة تشريعية لما ناسب الثناء والمدح.

وعلى الجملة: العناية البارزة في الآية تدلّ بوضوح على أنّ الإرادة هناك غير الإرادة العامّة المتعلّقة لكلّ إنسان حاضر أو باد.

وبذلك نقول: تعلّقت إرادته سبحانه بتنزيههم عن القبيح والعصيان كما تعلّقت إرادته بعصمة الأنبياء عليهم السلام عن الذنب والعصيان، وقد ثبت في محلّه أنّ العصمة لا تخالف الاختيار، وذلك لأنّ القدرة والتمكّن على فعل المعصية ثابتان للمعصوم، إلاّ أنّ العصمة تصدّه عن ذلك، فهذا يوسف كان قادراً على

ارتكاب الفاحشة، إلاّ أنّ عصمته منعته عن ذلك، وبهذا استحق الثناء والمدح.

شبهتان ضئيلتان:

إنّ السيد محمود الآلوسي مع أنّه من الشرفاء أخذ يناقش دلالة الآية على عصمة أصحاب الكساء بوجهين ضعيفين لايليقان بساحته:

الأوّل: أنّ الآية لا تدلّ على عصمتهم، بل لها دلالة على عدمها. إذ لا يقال في حقّ مَن هو طاهر: إنّي أريد أن أُطهّرك، ضرورة امتناع تحصيل الحاصل، غاية ما في الباب أنّ كون هؤلاء الأشخاص (رضي الله تعالى عنهم) محفوظين من الرجس والذنوب بعد تعلّق الإرادة بإذهاب رجسهم، يثبت بالآية.[١]

يلاحظ عليه:

أوّلاً: أنّ النبيﷺ من أصحاب الكساء والداخل تحت قوله تعالى: ﴿**أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾، فلازم ما ذكره من التفسير: أنّ النبيﷺ لم يكن متطهّراً من الرجس قبل هذه الآية وإنّما صار كذلك بعد نزولها، وهو خلاف ما اتّفق عليه المسلمون من عصمته بعد البعثة.

وثانياً: أنّ الإذهاب تارة يطلق ويراد به إذهاب الشيء بعد وجوده كما في قوله تعالى: ﴿**وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ**﴾.[٢] وأُخرى يطلق ويراد حسم أسباب الرجس وإذهاب المقتضي، لا رفعه بعد وجوده، ونعم ما ذكره الزمخشري حيث قال في تفسير الآية: إنّما يريد لئلاّ يقارف أهل بيت رسول الله المآثم وليتصونوا عنها بالتقوى.[٣]

---

١. روح المعاني ١٩ : ١٨.
٢. الأنفال: ١١.
٣. تفسير الكشاف ٢٣ : ٥٣٨.

الثاني: لو تعلّقت إرادته التكوينية بعصمتهم، فيتحقّق عندها الفعل، فعندئذ فأي حاجة لدعاء النبيﷺ في حقّهم حيث روي أنّه قال: «اللّهم إنّ هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»، إذ عندئذ يكون أشبه بحصول واجب الحصول.[١]

يلاحظ عليه: بأنّ دعاء النبيﷺ إنّما هو للاستمرار، نظير قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢] فإنّ معناه طلب استمرار الهداية من الله سبحانه، وهكذا دعاء النبيﷺ طلب استمرار الطهارة لأهل بيته في المستقبل أيضاً، إذ من المحتمل أن تتعلّق إرادته سبحانه بفترة خاصّة دون عامّة الفترات، فالنبيﷺ طلب من الله شمولها لعامّة الفترات.

يقول العلاّمة الطباطبائي في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.[٣] : إن تلك القوة القدسية التي استعصم بها يوسفعليه السلام كانت كأمر تدريجي يفيض عليه آناً بعد آن من جانب الله سبحانه، وليست بالأمر الدفعي المفروغ عنه، وإلاّ لانقطعت الحاجة إليه تعالى، ولذا عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي﴾ ولم يقل: «ولم تصرف عني».[٤]

وحصيلة الكلام: أنّ الممكن في وجوده وبقائه قائم بالله سبحانه فهو في حدوثه رهن العلّة، وهكذا في بقائه؛ لأنّه في حدّ الذات لايملك شيئاً، فلذلك في كل آن رهن الأفاضة من الله سبحانه إليه، وهذا هو المصحّح لدعاء النبيﷺ لاستمرار تلك الإفاضة.

وأظن أن هذه الإشكالات كانت واضحة الجواب عند السيد الآلوسي،

١ . روح المعاني ١٩ :١٠.
٢ . الفاتحة: ٩.
٣ . يوسف: ٣٣.
٤ . الميزان في تفسير القرآن ١٣ :٢٧٠.

ولكن رأيه المسبق في أئمة أهل البيت عليهم السلام أوجد تلك الأفكار في ذهنه.

سؤال وجواب:

ربما يقال: إنّ الآية على فرض دلالتها على العصمة، إنّما تدلّ على عصمتهم من العصيان، وأمّا عصمتهم من الخطإ، فالآية غير ناظرة إليه.

والجواب: أنّ بعض المفسّرين عمّم الرجس على الفكر الخاطئ في ذهن الإنسان، وبذلك جعل الآية دالّة على العصمة في كلا الموقفين.[١]

ومع ذلك يمكن الإجابة بالقول بالملازمة بين العصمة من الذنوب والعصمة من الخطإ بالبيان التالي:

إنّ الهدف الأسمى من وصف أهل البيت عليهم السلام بالعصمة، ليس إلاّ اتّخاذ الأُمّة لهم أُسوة على الصعيد الفردي والاجتماعي، ومعنى ذلك كونهم معصومين في جميع الجوانب، وإلاّ فلو كانوا يخطأون في بعض الأحيان، لما صحّ جعلهم أسوة على وجه الإطلاق.

وبعبارة أخرى: إنّ أهل البيت عليهم السلام أسوة قولاً وفعلاً، ومعنى ذلك كونهم مصيبين في مجالي القول والفعل.

الآية الثانية: آية طاعة أولي الأمر

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾.[٢]

وجه الدلالة: أنّه سبحانه عطف أُولي الأمر على الرسول صلى الله عليه وآله وأشرك بينهما

١ . نقله الشوكاني في إرشاد الفحول: ١٢٦.

٢ . النساء: ٥٩ .

وقال: أطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم، ومن المعلوم أنّ إطاعة الرسول غير مقيّدة بشيء؛ لأنّه معصوم لا يأمر إلاّ بالحق وما فيه رضا الله تعالى، فاقتضى أن يكون أُولو الأمر كذلك أيضاً فتجب إطاعتهم مطلقاً، ومن كان كذلك فهو معصوم قطعاً.

وإن شئت فصغه في قالب الكبرى والصغرى، وقل:

أُولو الأمر مَن وجبت إطاعتهم مطلقاً.

ومن وجبت إطاعتهم مطلقاً فهم معصومون.

ينتج: أُولو الأمر معصومون.

وهذا ممّا لا كلام فيه، فقد اعترف بما ذكرنا الفخر الرازي في تفسيره وقال: إنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع، لابد أن يكون معصوماً عن الخطإ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطإ، كان بتقدير إقدامه على الخطإ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطإ، والخطأ لكونه خطأُ منهي عنه، فهذايفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبارالواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ

من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم، وجب أن يكون معصوماً عن الخطإ، فثبت قطعاً أنّ أُولي الأمر المذكور في هذه الآية لابد وأن يكون معصوماً.[١]

ثم إنّ بعض المفسّرين حمل «أُولي الأمر» على الأمراء والسلاطين، ومن المعلوم أنّ أُولئك غير معصومين، بل أكثرهم من الفسقة والفجرة الذين يتعاملون بحقوق الشعوب بالحرمان والعصيان، وبعضهم فسّره بالعلماء من أهل الحل والعقد، وهذا أيضاً كالتفسير السابق إذ ليسوا بمعصومين قطعاً.

وأمّا تفسيرهم بالخلفاء الراشدين فغير تامّ جدّاً؛ لأنّه يستلزم اختصاص الآية بفترة خاصّة لا تتجاوز الأربعين سنة.

فعلى المفسّر المحقّق أن يتحرّى عن المراد بـ «أُولي الأمر» فلامعنى لأن يأمر الله سبحانه بإطاعة أُولي الأمر ولكن لم يعرّفهم.

والذي يجب أن يقال: إنّهم عبارة عن الخلفاء الاثني عشر الذين عرّفهم الرسول صلى الله عليه وآله بتعابير مختلفة.

أخرج مسلم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لايزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلُّهم من قريش».[٢]

إنّ أحاديث الأئمة الاثني عشر من الروايات الواردة في صحيحي البخاري ومسلم بطرق وصور مختلفة، كلّها تحكي عن أنّ النبي صلى الله عليه وآله أخبر عن اثني عشر خليفة من بعده، بهم أنيط عزّ الإسلام وقوامه، وبما أنّ المقال لا يسع لنقل هذه الروايات فللطالب أن يرجع إلى الصحيحين.[٣]

وقد مرّ أن تفسير أُولي الأمر بالخلفاء الراشدين، يستلزم اختصاص الآية

---

١ . تفسير الرازي ١٠ :١٤٤.

٢ . صحيح مسلم ٦ : ٣، ط. دار الفكر بيروت؛ ولاحظ : سنن أبي داود ٢ :٣٠٩.

٣ . لاحظ صحيح البخاري ٨ :١٢٧، طبعة دار الفكر، ١٤٠١ هـ .

بفترة معينة، ولكن تفسيره بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام يلازم استمرار وجود أُولي الأمر، فإنّ الإمام الثاني عشر أعني المهدي بن الحسن المنتظر عليه السلام هو حي يرزق سيظهره الله تعالى في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ورد في المصادر الحديثية للفريقين.

١. روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو لم يبق من الدهر إلاّ يوم واحد لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً».[١]

٢. أخرج أبو داود عن عبدالله بن مسعود: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي».[٢]

٣. أخرج أبو داود عن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة».[٣]

٤. أخرج الترمذي عن ابن مسعود: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي».[٤]

إلى هنا تمّ الكلام في الدليل القرآني على عصمة أهل البيت عليهم السلام، بقي الكلام فيما ورد في السنّة الشريفة من دلائل عصمتهم.

عصمة أهل البيت عليهم السلام على بيانٍ من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله

قد ورد التعريف بأهل البيت تارةً، والعترة ثانياً في لسان النبي صلى الله عليه وآله بعبارات تدلّ على أنّهم لايفارقون الحقَّ، ولايميلون إلى الباطل، وقد ورد ذلك المضمون في روايات متعدّدة نخصّ بالذكر منها اثنتين، وهما:

١. مسند أحمد ١: ٩٩، ٣: ١٧ و ٧٠.
٢. جامع الأُصول ١١: ٤٨ برقم ٧٨١٠.
٣. جامع الأُصول ١١: ٤٨ برقم ٧٨١٢.
٤. المصدر نفسه برقم ٧٨١٠.

١. حديث الثقلين.

إنّ النبي الأكرمﷺ قرن عترته بالكتاب الكريم، وجعل التمسّك بهما سبباً لعدم ضلال الأُمّة، ومن المعلوم أنّ القرآن لايأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، فما فيه عين الحقّ وحقّ اليقين، فإذن يكون قرينه الذي لا يفترق عنه، مثله، وهذا ما يعبّر عنه بحديث الثقلين لوروده في بعض المتون، وها نحن نذكر الصور المختلفة المتنوعّة من هذا الحديث، الذي نادى به النبيّ في مواضع مختلفة، ولعلّ الاختلاف في بعض الألفاظ نابع من إيراده في ظروف متعدّدة،

وإليك صور الحديث:

أ. لمّا رجع من حجّة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن فقال:

١. «كأنّي دعيت فأجبت، إنّي قد تركت فيكم الثقلين. أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى، وعترتي، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».[1]

٢. «ياأيّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله،

١. أخرجه الحاكم عن زيد بن أرقم، المستدرك ٣ : ١٠٩.

وعترتي أهل بيتي».[١]

٣. «إنّي تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما».[٢]

٤. «إنّي تارك فيكم الخليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».[٣]

وقد اقتصرنا في نقل المصادر بالأقل القليل من الكثير، وإلاّ فمصادر الحديث كثيرة تناهز العشرات، وقد ألّف غير واحد من أصحابنا كتباً في أسانيد الحديث وتضافره بل تواتره.

ولكن يجب علينا أن نركّز على ما رامه النبي الأكرمﷺ من الوصاية بهما، فنقول:

إنّ رسول اللهﷺ قد حكم في حديث الثقلين عن وجود التلازم بين عترته أهل بيته وبين الكتاب العزيز، وأوصى المسلمين بالتمسّك بهما معاً مصطحبين، ليتجنّبوا الوقوع في الضلالة، وأشارﷺ بقوله: «لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» إلى أنّهما بمنزلة التوأمين الخلفتين عنهﷺ، وهذا يقضي أن يكون أهل البيتعليهم السلام مقارنين للكتاب في الوجود والحجّة.

وبعبارة أخرى: إنّ ذلك يدلّ على أنّه لابدّ في كلّ عصر، في جملة أهل البيت، من حجّة معصوم مأمون يقطع على صحّة قوله.

١ . أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر ونقله عنهما في كنز العمال ١ : ٤٤.

٢ . أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم ونقله في كنز العمال ١ : ٤٤، برقم ٨٧٤ .

٣ . أخرجه أحمد في مسنده ٥ : ١٨٢ ١٨٩ . ولاحظ: مسند أحمد٣: ١٤و١٧ و٢٦، طبعة دار صادر- بيروت؛ سنن الترمذي ٥ : ٣٢٨ ؛ فضائل الصحابة للنسائي: ١٥ ؛ مجمع الزوائد ١ : ٨٨ .

وممّا يؤيد ما ذكرنا أنّه ورد في ذيل بعض الصور أنّ النبيﷺ بعدما ذكر أنّه مخلّف كتاب ربّه وعترته أهل بيته، قد أخذ بيد عليعليه السلام ورفعها وقال: «هذا عليٌّ مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض».[١] أفيشك في عصمة القرآن مسلمٌ؟! فلابدّ أن لا يشكّ في عصمة مَن لا يفارقه.

* * *

٢. حديث السفينة

إنّ حديث السفينة من الأحاديث المتواترة عند المحدّثين، ولايسعنا نقل مصادره، ومن أرادها، فليراجع إلى هامش الصفحة :٧٧ من كتاب «المراجعات» للعلامة السيد شرف الدينقدس سره.

فقد تضافرت الروايات عن النبي الأكرمﷺ أنّه شبّه أهل بيته بسفينة نوح، وقال ما هذا لفظه: «ألا إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح مَن ركبها نجا، ومَن تخلّف عنها غرق».[٢]

وفي لفظ آخر: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غُفر له».[٣]

يقول السيد شرف الدين العامليقدس سره: وأنت تعلم أنّ المراد بتشبيههم بسفينة نوح، أنّ مَن لجأ إليهم في الدين، فأخذ فروعه وأصوله عن أئمتهم الميامين نجا من عذاب النار، ومَن تخلّف عنهم كان كمن آوى يوم الطوفان إلى جبل

---

١ . الصواعق المحرقة: ١٢٤، طبعة المحمدية بمصر.

٢ . مستدرك الحاكم ٢ : ٣٤٣، و ٣ : ١٥١.

٣ . مجمع الزوائد للهيثمي ٩ : ١٦٨. ولاحظ : المعجم الكبير للطبراني ٣ : ٤٦ ؛ كنز العمال٢ : ٤٣٥ و ١٢ :٩٨.

ليعصمه من أمر الله، غير أنّ ذاك غرق في الماء وهذا في الجحيم والعياذ بالله.

والوجه في تشبيههم عليهم السلام بباب حطّة، هو أنّ الله تعالى جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والخضوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة. وقد جعل انقياد هذه الأُمّة لأهل نبيّها والاتّباع لأئمتهم مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والبخوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة. وهذا وجه الشبه، وقد بيّنه ابن حجر في كلامه بعد أن أورد الحديث وغيره قال : ووجه تشبيههم بالسفينة أنّ مَن أحبّهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرّفهم، وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومَن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم، وهلك في مفاوز الطغيان.. إلى أن قال: وباب حطّة يعني: ووجه تشبيههم بباب حطّة أنّ الله تعالى جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحا أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سبباً للمغفرة، وجعل لهذه الأُمة مودّة أهل البيت عليهم السلام سبباً لها.[1]

هذا ما سمح به الوقت وجاد به الفكر، عسى أن يقع موقع القبول، والحمد لله رب العالمين.

جعفر السبحاني قم المقدسة

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٧ / محرم الحرام / من شهور سنة ١٤٣٤هـ

---

١ . الصواعق المحرقة: ١٥١، الطبعة المحمدية، مصر.